

مهم ، أو لا يستند إلى الواقع ولا إلى العقل والمنطق ؛ والحس ينكره والتجارب لا تؤيده ... الخ

هل وضع مثل هذا الكاتب مقياساً علمياً مجرداً عن التأثير الشخصي لمعرفة الحق والباطل ؟ هل اتخذ فاصلاً من الأساليب اللغوية لتبين النص والصراحة والوضوح من اللبس والاحتمال والأبهام ؟ هل أراد من الواقع الواقع الذي له اعتبار عام ، أم ذلك الذي يدركه هو من أفق ومحيط ؟ هل أراد بالعقل العقل الإنساني ، بنقض للنظر عما لكل فرد من ثقافة وعادات وعن الفروق الفردية والبيئية ، أم أراد به الشائع المروف كالذي يحكيه الفارابي عن المتكلمين في زمانه من أنهم كانوا يقولون : هذا يقبله العقل ، هذا لا يسلم به العقل ، ويقصدون بالعقل للشائع المتعارف بينهم ، وبذا فهموا المنطق الصوري خطأ واستخدموه خطأ كذلك ؟ ماذا قصد من الحس وأى شيء أرادته بالتجارب ؟ أرادها ما يتعلق به خاصة أم أراد تلك التي تتكون قواعد للمعلوم العامة ؟ هذه أسئلة يطاق للملاء على جوابها الفصل بين بحث وبحث . فإذا كان الباحث متأثراً بشخصه في وضع « مقياس » الحقيقة سمي المقياس شخصياً . وعليه فالذي يجعل من ثقافته الخاصة ، وواقعه الخاص ، وعقله وعاداته الخاصة ، ونظرته الخاصة في الحياة مقياساً للبحث كان مقياسه شخصياً

والباحث الذي يبعد كل هذه العوامل الشخصية في البحث عن الحقيقة يكون قد قصد إليها متجرداً ، وتكون حقيقته التي وصل إليها حقيقة مجردة وعلى قدر تجرده في بحثه عما هو شخصي يكون ظهور حقيقته ناصمة ، أي لم يسدل عليها أي غشاء شخصي لا دخل له في ما هيئها الذاتية

والمقياس الشخصي اعتباره بالنسبة إلى الشخص الذي وضعه لحجب ؛ فلا تلزم بتأنيبه غيره ولا تبني عليه أحكام عامة . أما المقياس المجرد Objective فاعتباره عام ، لأن تجرده من الأثر الشخصي يبعد عنه نزاع الأفراد ويحمل كل فرد (تقريباً) على الاعتراف به ، ولهذا تكون لتأنيبه وأحكامه قوة للقوانين والمبادئ العامة

ومد كان الشخص نفسه في التقديم معيار المعارف والمعلوم ، متخذاً ذاته أساساً لبحث الحقيقة والحكم على التصرفات والسلوك الإنساني بأحكام خلقية ، فأنجيله حقيقة فهو حقيقة (في الواقع)

على هامش الأبحاث النفسية والفلسفية

أساليبنا في البحث

وعلام تعتمد ؟

للدكتور محمد البهي



كُتبت مرة في مجلة أزهرية كلمة حول تطور فكرة « الشر » في القصص الميثولوجية Mythology والأبحاث الفلسفية ، وكيف دخل كثير مما قيل فيها من آراء في شرح ما جاء في الديانات السماوية السامية من التعبير « بالشیطان » على لسان المفسرين العقلانيين Rationalisten

فكتب « باحث » آخر يلاحظ أن كلتي اشتملت على « غموض وإبهام » ، وأنى قد « أطلت من غير داع » ، وأن « كل اعتمادى على الفكر الخيالية » ، ولم تكن « لمقدمتي للطويلة كبير فائدة تذكر للمسلمين وغيرهم » . وليتني « إذ تعرضت للفلسفة أتيت منها بما يستند إلى البرهان العقلي أو التجربة والملاحظة كما هو أساس الفلسفة الحديثة التي انتهت إلى إثبات الأرواح المجردة علوية وسفلية . ولكنني لم أقفل ، بل أتيت بما هو منقوض بنفس الفلسفة الحديثة التي انتهى إليها تفكير الفلاسفة المصريين في أبحاثهم »

وهكذا كان « بحثه » مملوءاً بمثل هذه الأحكام والملاحظات . وقد ختمه بأن وعدني « بالناقشة باعتبار أني مسلم »

مثل هذا الكاتب ليس بالقليل ، وطريقته في البحث غير مجهولة . وهو فقط مثل جزئى لظاهرة تطبع تفكير الكثير من « باحثينا » وكتابنا

لهذا لا أقصد من كلتي هذه سوى شرح تلك للظاهرة وتمثيلها من ناحية البحث التاريخي الفلسفي ، وإرجاعها لحالة معينة من الحالات العقلية التطورية للجماعة من وجهة البحث البسيكولوجي

كثيراً ما نقرأ « للباحثين » أمثال هذه العبارات : ما أقوله (أنا) حق ، أو هو الحق الصراح ، أو واضح وضوح الشمس في رابعة النهار . وما تقوله أنت (للخصم) باطل ، أو غامض

وما وقع حسنة في نفسه فهو حسن (في الواقع) . وأصبحت المعرفة لذلك عبارة عن حقائق شخصية ، وأصبح الشيء الواحد له أكثر من حقيقة . ولم يلبث أن أصبحت هذه الطريقة مذهباً فلسفياً عرف بالمذهب الشخصي Subjectivism كما عرف أتباعه بالشخصيين (وهم المنسطائيون في المذهب الأول)

ومع أن للفلاسفة الذين جاءوا بعد المنسطائيين ، مثل أفلاطون وأرسطو حاولوا التدليل على أن « حقائق الأشياء ثابتة » أي غير متعددة تبعاً لعدد الأفراد ، وغير متغيرة لما بينها من مغايرة وفروق يحكم هذا التعدد ، ووضعوا لتعرفها قانوناً عاماً يسمى آلة العلوم ومقياس العلوم وهو المنطق الصوري ؛ ومع أنهم وصوا بعدم إلقاء المبادئ والمفاهيم الدينية في البحث لم يخلص معارفهم ولا الأحكام التي كونوها عن الله ، والعالم ، والإنسان — وهي فلسفتهم — من التأثير بثقافتهم الخاصة ، وبيئتهم الخاصة ، ونظراتهم الخاصة إلى الحياة ، وهي ما نلصقها في الفرق بين فيلسوف وفيلسوف

أنجبه التفكير بعد ذلك ، وهو البحث الفلسفي ، إلى الإيمان في الفصل بين المؤثرات للشخصية ، والنظر إلى الأشياء على ما هي عليه في الأبحاث العلمية ؛ أو بعبارة أخرى مال إلى تجرييد المقياس الذي يتخذ أساساً للبحث من الخصائص الفردية . ولم يستطع العقل « الحر » أن يسير خطوة في تحقيق هذه الرغبة إلا منذ عصر النهضة ؛ أي بعد أن أخذت شعوب أوروبا تتحرر من سلطان الكنيسة

وقد كان لوقف الإسلام تجاه الأبحاث الفلسفية منذ القرن التاسع الميلادي إلى القرن الثاني عشر أثر كبير في التشجيع على عملية الفصل هذه . فبينما كانت الكنيسة في الغرب تفرض أن تكون العقيدة الكنسية المبدأ الذي يأخذ منه البحث مجراه ، كان المسلمون في الشرق ، ثم في الغرب أيضاً يبحثون في فروع الفلسفة المختلفة ؛ في الطبيعة والرياضة حتى في المسائل الإلهية ، والأبحاث النفسية الخلقية ، في جو مملوء في عمومته بحرية البحث وأنتج من فلاسفة المسلمين من استطاع أن ينتج . ووصلت فلسفتهم مميزة الفروع ، أي لم يراع في بحثها مبدأ واحد كبداً للعقيدة مثلاً ، إلى أوروبا عن طريق أسبانيا

فلما احتك العقل الأوروبي الراغب في التخلص من الجولان حول نقطة واحدة ، نقطة العقيدة ، بالعقل الشرقي الإسلامي الذي

لم يتحكم في تفكيره اتجاه خاص ، ازدادت رغبته في بحث الكون من الكون نفسه ، فترك العقيدة جانباً ، أي ترك أهم عامل من العوامل التي تؤثر في بحث الشخص والتي تجعل مقياسه العلمي شخصياً ، وعمل على تحليل نفسه من كل اعتبار آخر غير اعتبار « الحقيقة » لذاتها

وكان ديكارت أول فلاسفة عصر النهضة الذي نفذ هذه الرغبة في صورة منظمة كاملة . ثم نما كثير من الفلاسفة نحوه وهو العمل على وضع مقياس علمي مجرد عن الأثر الشخصي ، مقياس objective ، ولم يكن اختلافهم الذي بدا في مذاهبهم النسوية إليهم اختلافاً في وجوب اعتماد المعارف الإنسانية وفي حاجة يقينيتها إلى مثل هذا المقياس ، بل كان في كية الشروط وفي كيفية التي تحقق مثل هذا المقياس المنشود

وإذن أصبحنا نرى في تاريخ الفكر البشري مقياسين للمعارف : المقياس الشخصي ، والآخري غير الشخصي (المجرد) ، ونرى كذلك لإنتاجه طابعتين : الطابع الشخصي والطابع الذي يمتد للفرد والشخص

والفلسف لم يبق — منذ أن قام — إلا لإيجاد المقياس غير الشخصي ، وإلا لأن يطبع أبحاث الإنسان وعلومه بطابع الاعتبار العام كي يتخذ منها أساساً واضحاً ، بعيداً عن النزاع الفردي ، في إرشاد الإنسان نفسه وفي تمكينه من السيطرة على بيئته ، وبالتالي في تقريب أفراد الجماعة الإنسانية بعضهم من بعض وفي تكوين ما يسمى « بالعقل الإنساني »

والفلسفة في بدايتها ونهايتها ، وفي قديمها وحديثها ، لم تعمل لغیر هذه الغاية . وما يبدو في معارف الإنسان الأولى من خيال أو وهم أساسه استخدام المقياس للشخص في بحثها ، وما يبدو في علومه الآن من عقل ومنطق أساسه التقرب بقدر ما يمكن من المقياس الثاني ، وللتخلي بقدر المستطاع عن العوامل الشخصية في البحث

وعلماء النفس حينما نظموا الأبحاث النفسية الحديثة ، فرضوا « لاجتماع » نفساً كنفس للفرد سواء بسواء ، وطبقوا عليها لذلك مظاهر التطور النفسي من طفولة فراهقة فرشد وبلوغ وجعلوا من مميزات الطفولة « الأنانية » أو ما يسمى « بأنا » لأن للطفل في أحكامه يصدر عن « ذاته » وليس عن الواقع المجرد من شخصه ونفسه . وجعلوا من مظاهر المراهقة الوقوف

خزائير للنفس العربية !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

١ - ضمائر المهزول الأول

نحن الآن في قلب الجزيرة ... في جاهليتها الأولى ، الثرية
بماني طفولة للبشرية التي تملأ الحياة شعراً وتهاويل وأوهاماً ...
نحوض في بحر من الرمال ينل بالحجارة ، ويسط على الجلود
لفحات من لظى تصيب الأجسام بقشعريرة من بحر ان الحى
التي تصهر الأجسام ، وتجعلها جرات مشبوبة الشاعر ، نائرة
للمعاصر ، حديدة الزاج ، مكشوفة الرماد عن الطبع الخالص ،
والفطرة للصريحة ...

ننقل الخطأ على تراب آباءنا الأولين ، ونبحث فيه عن عظامهم
التي غابت في التلال والرجام ...

ونشم فيه دماء التي ابتلعها الرمال المتعطشة أبداً مع ما ابتلعت
من دموع الغمام ...

ونحدق في الأضواء والظلمات إلى صورهم التي طبعت في ألواح
الأثير مع ما صبته الشمس والكواكب من الأضواء والظلال ...
ونتسمع إلى أصواتهم التي فنيت في الصمت المطلق ...

فتطالنا من وراء التيب أشباح لها وجوه سمراء ، حادة
للنظرات ، دقيقة الأنوف ، عريضة الجباه ، عليها سباب الكبرياء
والاعتداد ، وسهوم العزلة والتفرد ...

يتمصون حرارة الصحراء ، وينضجونها دماء حارة ، وحرية
جرا ...

ويصيدون النغم الدائب في الأجواء ، ويصوغونه شعراً
منثوراً ومنظوماً يبيان يقتحم الآذان ، ويلقف للمقول ...
ينشدونه في هياكلهم البنية بمجدران من جبال ، وأعمدة
من نخيل فارعات كالردة ...

ويتفننون به في مواسم الحب والحرب على حواف الآبار ،
وشواطئ بحار السراب والآل ...

ويقومون للبيان أسواقاً يعرضون فيها لعب الجن بأرواحهم

بين يمين ، إذ أحكامه وتصرفاته defoss غير واضحة المصدر . ولذا
تراد يعيش كثيراً في الخيال الذي لا يمت إلى الحقيقة الراهنة بصلة
وثيقة . وأحياناً يساير الواقع ؛ ولكنه في خياله ملك مجتمع ، وفي
حقيقته إنسان ضعيف بكتر للبكاء والملل من هذه الحياة ؛ لأن القلم
الذي يسطر به في صحف الخيال لا يقدر على متابعة الكتابة فوق
صخرة الواقع . وجعلوا من مظاهر الرشد أو التضوج ربط
التصرف بالواقع ، وعدم إلقاء المؤثرات الشخصية في الحكم
عليه ، والنظر إليه « بيمين الحقيقة » لا بيمينه هو

وكذلك حكموا على الجماعة فأطلقوا عليها جماعة ساذجة ، أو لم
تزل بمد في دور الطفولة ، إذا كانت تجمل الفردية أو الشخصية
أساس المعرفة ؛ وحكموا عليها ببلوغ طور المراهقة إذا حاولت
الفصل بين الشخصى والواقع ، وبلوغ طور الرشد والتضوج إذا
انجذبت في أبحاثها نحو الواقع أكثر من تأثرها بالعوامل الشخصية
وعلى هذا فالتفلسف ، أو بحث الإنسان للعقل داخل الجماعة
للشربية ، يمثل دور الطفولة في الوقت الذي كان يسيطر فيه
المذهب الشخصى Subjectivism ، ويحكمى دور المراهقة في الزمن
الذي بدت فيه الرغبة إلى للفصل والعمل على تنفيذ تلك الرغبة .
وفي عصرنا الحديث يدخل في دور الرشد والتضوج لأن السائد
في أبحاثه مذهب objektivism

هذا عرض تاريخي موجز لأساليب البحث في التقديم والحديث
بالنسبة للفلسفة والتفلسف ، وفي أطوار نمو الفرد وتدرج الجماعة
في التفكير من الوجهة البسيكولوجية .

وفي ضوء هذا نمود إلى هؤلاء الباحثين ، أمثال ذلك الباحث
« الأناني » ، الذين تتصل أحكامهم صلة وثيقة بذواتهم ، وتشكون مما
لهم من ثقافة خاصة ونظرة خاصة في الحياة لنقول لهم : إن هذه
الأبحاث ما دام مصدرها « أنا » وغايتها « أنت » سوف يكون
اعتبارها شخصياً لا تؤدي نصيباً في الإنتاج الفكرى العام .

نم إلى هؤلاء الأقلاء الذين يسلكون في أبحاثهم طريق
« للعقل الكلى » ، عقل الإنسانية — لا ذلك العقل الجزئى —
لنقول لهم أيضاً : عليكم وحدكم يتوقف توجيه أمتنا في حياتها
العقلية وعليكم وحدكم يتوقف مستقبل التفكير في مصر والسير به
إلى طور الرشد والتضوج !

محمد البهى

دكتوراه في الفلسفة وعلم النفس
من جامعتى برلين وهامبورغ